تحقيق

آخر نحاس في القدس يحاول جاهدا أن يحيي حرفة أجداده من خلال جمع قطع نحاسية نادرة ونقش بعض التحف وصناعة بعض القوالب التي تحتاجها المطاعم.

صناعة السجاد اليدوي في سوريا كغيرها من الحرف الأخرى تعاني من سوء التسويق وكثرة السجاد الآلي وهجر الحرفيين الذين غادروا البلاد هربا من لظى الحرب.

آخر النحاسين في القدس ينفخ في حرفة تحتضر

● دكان وحيد في سوق الخواجات يطرق النحاس بخجل ● الأواني المستوردة منخفضة الأسعار تغزو البيوت المقدسية

فن النقش بين أصابع رجل واحد

متحف بلا زبائن

لماذا تموت الحرف التي نقشت هوية شعب سنين طويلة؟ سؤال يتكرر مع كل حرفة تراثية قديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة دون أن ينتبه إليها إلا القليلون رغم أن شعوبا عديدة تحرص على تراثها الذي تتميز به، وفي الوطن العربي تموت الحرف اليدوية واحدة بعد أخرى دون اهتمام من السلطات المعنية بحفظ التراث والهوية، وحرفة النحاس واحدة من الحرف التي يطويها النسيان في البلدان العربية كما في القدس أين يدافع أبوجواد عنها دون أن يتعلمها منه أحد.

❑ **القدس** – لا بد للمار في سوق "الخواجات"، في البلدة القديمة للقدس المحتلة، أن يلتفت إلى دكان النحّاس محمد عبدالجواد (47 عاما)، ليس لجمال معروضاته النحاسيّة القديمة فحسب، وإنما لكونه أحد الدكاكين النادرة التي مازالت تفتح أبوابها في تلك السوق المهجورة.

ويعتبر عبدالجواد آخرَ نحّاس في مدينة القدس، فلم يبق في المدينة أي محل آخر يختصّ بصناعة الأدوات النحاسيّة أو تبييضها سواه.

ورث عبدالجواد تلك الحرفة عن والده وجدّه، وتربّى في بيته في حارة السعدية وهو يراقبهما يصنعان الأدوات النحاسية ويبيضانها، فتعلمها وأتقنها.

ويشير إلى أن أبواب أكثر من عشرين محلا في السوق قد أغلقت بعد انتفاضة الأقصى عام 2000، بسبب ضعف الحركة الشرائية، مضيفا "لم يتبق سوى 6 محلات تفتح أبوابها في سوق الخواجات".

ويقول عبدالجواد إنه يسعى من خلال محله إلى إحياء السوق الخاوي من الزبائن، "بقائي هنا لا يعود لأسباب الربح فقط، فصنعة النحاس لا تجلب الكثير من المال هذه الأيام، لكني أحاول إنعاش آخر ما تبقى من إرث النحاسين في المدينة".

وسوق الخواجات يعود إلى العهد المملوكي في مدينة القدس، ويوازي سوقين شهيرين هما سوق اللحامين وسوق العطارين. وقد أطلق على تلك الأسواق "السوق الثلاثي"، فهي ثلاثة ممرات متوازية في قلب البلدة القديمة.

وأطلق اسم سوق "الخواجات" نظرا لتجار الأقمشة الأجانب الذين كانوا يعرضون بضاعتهم في تلك السوق.

ويعاني سوق الخواجات كبقية أسواق القدس من ضعف الحركة الشرائية، ويشعر المارّون بالهدوء التام في أغلب ساعات اليوم، حيث يجلس أصحاب المحلات المتبقية على أبوابها دون عمل يذكر.

ومنذ 15 عاما، ورغم اندثار محلات النحاسة، واختفاء قدور النحاس من مطابخ أهل القدس، ورغم ضعف الطلب، قرر عبدالجواد الالتفات إلى "الصنعة التي بيده" كما يقول، والتي تمثل إرث أبيه وجدّه، فخصص وقته لتوسيع معارفه وتطوير مهاراته في حرفته.

وعلى طرفي دكانه في سوق الخواجات يعرض عبدالجواد ما جمعه طوال تلك السنوات من قطع نحاسيّة يصل عمر بعضها إلى مئتي عام، كالأواني والصحون والمزهريات والشيشة ويد الهاون والثريات ومكاوي الفحم والصواني المستخدمة لتزيين الجدران.

ويحصل عبدالجواد على تلك القطع من أسواق الخردة ومحلات المقتنيات القديمة في مختلف مدن فلسطين، كما أن بعض العائلات تأتي له بما ورثته عن جدّاتها من أدوات نحاسيّة، وتستبدلها بما فاضت به سوق الأدوات المنزلية المستوردة.

ويقول عبدالجواد إنه لا يتعامل مع ما يصله من قطع نحاسية كمعاملة التاجر فقط، فلا يحبّ أن تأتيه القطعة ومن ثمّ يبيعها في اليوم التالي، بل يُنشأ معها علاقة تتعدى مساحة البيع والشراء.

ويشير إلى بعض معروضاته قائلا "هذه القطعة إيرانية مثلا، وتلك لم أعرف مصدرها، فقضيت ما يقارب أسبوعين أبحث عنها في الإنترنت حتى عرفت أنها يابانية الأصل".

وفي ظلّ اندثار استخدام الأدوات النحاسية، فإنّ عمل عبدالجواد اليوم ينحصر في صناعة بعض الأدوات للمطاعم، مثل قوالب الفلافل، قائلا "أغلب القوالب المستخدمة في تشكيل الفلافل في مطاعم القدس أقوم أنا بصناعتها، منها مثلا ما يأتي على شكل رأس قلب أو نجمة أو وردة".

ويضيف بفخر "أقوم بتصليح أغلب سخانات القهوة أو السحلب في المقاهي الشعبية، كما أصنع 'الأهلة' التي تعتلي مآذن المساجد".

إضافة إلى ذلك، يجمع عبدالجواد مع حرفة النحاسة حرفة تبييض النحاس، والتي عُرفت تاريخيا كمهنة منفصلة عن النحاسة، وتتضمن تنظيف الأواني النحاسية وتغليفها بطبقة من القصدير لحمايتها من المواد السامة.

ويقوم عبدالجواد بتبييض بعض الأدوات النحاسية التي مازالت مستخدمة حتى اليوم، كالقدور الكبيرة أو صحون دقّ الحمص التي يستخدمها جاره في سوق الخواجات "مطعم ادكيدك" الشهير.

أما آخر انشغالات عبدالجواد، وأقربها لقلبه، فهي النقش على ألواح النحاس وصناعة اللوحات النحاسية الفنية المكوّنة بالأساس من عبارات مزخرفة، أو آيات قرانية، والتي يجد فيها شغفه وتوافق اهتمامه.

وبما أنه الوحيد الصامد في حرفة النحاسة في القدس، زار عبدالجواد دولا عدة للاستفادة من تجاربها في مهنة النحاسة وتعلّم أساليب جديدة، ومنها الجزائر التي زارها مرتين والتقى بنحاسيها في قسنطينة، وذهب كذلك إلى إندونيسيا، كما أن موقع اليوتيوب لا يبخل عليه بالأفكار الجديدة.

ويرى عبدالجواد أن المستقبل أمام هذه المهنة ليس مبشرا، وأنها في "أنفاسها الأخيرة" حسب تعبيره، خاصة عند الحديث عن نقش اللوحات الفنية وأدوات الزينة.

ويقول عبدالجواد "الحصول على المواد الخام مكلف جدا، فلوح النحاس الذي نحتاج للنقش عليه غال، وبالتالي لا نستطيع المنافسة أمام أسعار البضائع المستوردة".

ولا تغيب عن عبدالجواد الإشارة إلى ضعف تقدير المهارة اليدوية، وميل الناس إلى البضائع الاستهلاكية منخفضة التكاليف.

ويواظب عبدالجواد على فتح دكانه، ولا ينسى الإشارة إلى كون ذلك محاولة متواضعة لإحياء سوق الخواجات الذي أغلقت أغلبية محلاته. ويتسع طموح عبدالجواد إلى أن ينتج تذكارا مميّزا من النحاس يقتنيه السائح أو الزائر للقدس، "من صميم القدس" كما يقول، يحكي حكايتها، ويحمل رموزها.

ويقول "عندما تذهب إلى مصر مثلا تشتري تذكارات من صنع مصري، تحاكي الأهرام مثلا، وهكذا في كل الدول، فلماذا لا تكون لدينا في القدس تذكارات للسياح، تحمل رموز القدس وفلسطين، مثل باب العامود أو باب الخليل أو قبة الصخرة، وتكون كذلك من صنع أبنائها وداخل أسواقها؟".

وكان للنحاسين في القدس سوقٌ خاصّة يشتركون فيها مع المُبَيضين، وهم من يختصون بمهنة تبييض الأدوات النحاسية وتصليحها.

وبحسب الباحث في تاريخ القدس بشير بركات، فقد أُنشئت تلك السوق في العهد المملوكي في أحد مقاطع طريق باب السلسلة إلى الغرب من المسجد الأقصى، وامتدّت من مفترق حارة الشرف إلى الغرب على مسافة 70 مترا.

ويضيف بركات أن تلك السوق انتقلت في أواخر العهد العثماني، تحديدا في العام 1860، إلى المقطع الشمالي من سوق اللحّامين، وسط البلدة القديمة، إلى أن تحوّلت غالبية دكاكينها إلى بيع المواد الغذائية أو التحف والجلود مع احتلال القدس عام 1967.

وفي كتابه "المفصّل في تاريخ القدس"، تحت عنوان "القدس كما رأيتها في مطلع عام 1947"، يمرّ المؤرخ عارف العارف على سوق النحاسين في ذلك الموقع الذي ذكره بركات، إلى الشمال من سوق اللحامين وإلى الجنوب من سوق خان الزيت.

ومن تاريخ الصناعات النحاسية في القدس، يذكر بركات أن أبواب المصلى القبلي وأبواب مصلى قبة الصخرة في المسجد الأقصى كانت تغطى بألواح نحاسية يتم تصنيعها في سوق النحاسين في القدس.

السجاد السوري يحترق بنار الحرب

❑ **دمشق** – تعتبر صناعة السجاد والبسط اليدوي من المهن اليدوية العريقة في سوريا وتمتد جذورها إلى الآلاف من السنين، وهي ليست حرفة عادية وإنما حرفة من حرف الفن والإبداع يُظهر فيها الصُنّاع براعة رسوماتهم ونقوشاتهم المحلية التي تحاكي تاريخ وعراقة سوريا.

وبعد اندلاع الثورة باتت هذه المهنة مهددة بالانقراض لأسباب عدة منها؛ الحالة الاقتصادية والفقر والعوز والنزوح وارتفاع تكاليف المعيشة وارتفاع نسبة البطالة وقلة فرص العمل التي أدت إلى التفات السوريين إلى تأمين قوت يومهم والاستغناء عن الكماليات.

وهاجرت هذه الحرفة مع أصحابها الى الدول المجاورة في لبنان والأردن وتركيا، حيث عمل بعض النساجين على إحيائها لكسب قوت عيشهم نظرا لشهرة هذا السجاد في مناطق الخليج خاصة.

وتقول الشابة شيرين من مدينة اللاذقية "ورثت عن عائلتي مجموعة من السجاد والبسط اليدوية الصنع التي تباهيت بها أمام الجميع طالما أنهم يدركون أن من يمتلكها هو من ذوي الحال الميسور ماديا"، مضيفة أن هذه الحرفة واجهت قبل الحرب مشاكل عدة منها ظهور السجاد المشغول آليا والمعتبر أرخص ثمنا من السجاد اليدوي الذي اقتصرت مبيعاته على السياح الوافدين على سوريا والمقتنين إياه لبلادهم كرمز تعريف لحضارة سوريا، كما واجهت هجران حرفييها المهرة، بعد أن صارت لا تلبي حاجتهم ومتطلبات حياتهم اليومية.

اللاجئون يحفظون المهنة من الاندثار

وأصبحت حرفة السجاد بعد اندلاع الثورة مهددة بالانقراض بشكل نهائي لولا محاولات بعض اللاجئين في الحفاظ عليها، ففقر الشعب السوري جعله يختار ما هو ضروري لمتابعة سير الحياة ويتخلى عما هو كمالي بعد أن باتت أسعار السجاد مرتفعة وغاب السياح الذين يمثلون الزبائن الأكثر إقبالا على شرائها بسوريا لتردي الأوضاع الأمنية، هذا إضافة إلى تلاشي ورشات صناعتها في الأرياف والتي كانت موردا اقتصاديا هاما لهم.

ويتميز السجاد والبسط السوري بجمال ألوانه وتنوع رسوماته ونقوشاته وتقنينه للزينة والاستعمال كافة طبقات المجتمع وكذلك ينال إعجاب واستحسان السياح والزوار في سوريا.

صناعة السجاد تحتاج إلى مزاج وصبر خاصة وأن الرسومات والأشكال الهندسية تتطلب دقة عالية لذلك صنفها البعض بأنها صناعة نسائية، لكن لم يبق منهن إلا العدد القليل يعملن بمجالها وداخل منازلهن على النول القديم. أم محمود السبعينية في معرة النعمان بريف إدلب والتي بقيت تعمل بها لأطول فترة مقتنعة أنه لا يوجد سجاد ممتاز بعد السجاد اليدوي، وبالأخص أن يد المرأة السورية هي من أنجزت تلك الحرفة الأثرية العريقة.

وأشارت ورود إبراهيم الباحثة في مجال الآثار إلى ان نتائج البحوث الأثرية تشير إلى أن السوريين عرفوا النسيج منذ بدء الحضارة، مبينة أنه تم اكتشاف حصيرة قديمة في التنقيبات الأثرية ما يدل على أن الأموات في الحضارة السورية القديمة كانوا يكفنون بالكتان المنسوج.

> السجاد السوري جمال في الألوان وتنوع في الرسومات والنقوشات يصلح للزينة والاستعمال لكافة طبقات المجتمع

إحياء هذه الحرفة في بلاد اللجوء يشعل شمعة أمل في بقائها واستمرارها، ويجب على منظمات المجتمع المدني الاهتمام بهذه المهنة العريقة وفتح دورات تدريبية لتعليمها وخاصة للنساء والفتيات للمحافظة على مهنة الآباء والأجداد، وتمكين العائلات المحتاجة من خلال مساعدتها لفتح ورشات صغيرة للإنتاج بعد تدريبها وتأهيلها والمساعدة في تصريف منتجاتها.

قاسم الذي امتهنت عائلته صناعة السجاد منذ حوالي خمسة قرون فتح ورشة له في مدينة عنتاب التركية، محاولا تلبية جميع الطلبات التي تأتيه ويقول إنه "سعيد بما يقوم به من عمل إحياء للتراث واستمرارا لحرفة الآباء والأجداد".

وفي مخيم أديامان للاجئين في تركيا تعيش قلة من النساء اعتمدن على أنفسهن في كسب عيشهن من خلال صناعة السجاد. وتقول رولا قاسم التي فرت من القتال في بلدها، "ترغب النساء في العمل هنا حتى يبتعدن عن التفكير بسوريا على الدوام، ويحاولن نسيان الأوقات العصيبة التي واجهنها هناك".

وتوضح رولا قائلة "يساعدنا هذا العمل في نسيان ما أصابنا من صدمات نفسية، كفقدان الأهل، أو يحملنا على أن نتوقف عن التفكير على الدوام في الأطفال الباقين في سوريا. من الممكن أن تخفف هذه الدورة عنا".

وتُصنع السجاجيد وفقا لتصميمات تقليدية تقول وردة عنها إنها معقدة "الجزء الأصعب من هذا العمل هو مضاهاة السجاد بالرسم تماما. فهناك أشياء كثيرة في هذه المهنة يصعب تعلمها نظرا لعدم سهولتها مثل وضع الخيط في الموضع الصحيح الذي ينبغي لنا أن نتعلمه. ما أصعب هذا التحدي".

ويعمل علي المطر (35 عاما)، الذي لجأ إلى تركيا هربا من الحرب، في مهنة نسج السجاد داخل غرفة صغيرة بمنزله، مستخدما زخارف عربية وعثمانية.

وقال إنه مازال حريصا على مزاولة مهنته بعد اللجوء، كي لا يحتاج إلى مساعدة أحد، موضحا أنه عانى لفترة طويلة بحثا عن عمل يمكّنه من تلبية احتياجات أسرته.